

قائيل وهابيل

دخل التاريخ كأول أخوة أنداد، ودخله أيضًا كبطلين لأول جريمة قتل حدثت في التاريخ.. إنهما قاييل وهابيل.

عقب خروج آدم وحواء من الجنة، بعد وسوسة إبليس لهما، هبطا إلى الأرض، ووضعت حواء زوجة سيدنا آدم -عليه السلام- توأمين، هما: هابيل وأخته وقاييل وأخته، وكان كلٌّ من قاييل وهابيل عاملين في الأرض، فقد كان هابيل من رعاة الأغنام، أما قاييل كان من زراع الأرض.

تزوج كلٌّ من قاييل وهابيل أخت الأخر، حفاظًا على النوع الإنساني وحمائيةً له من الانقراض والفاء، فتزوج قاييل توأم هابيل، وتزوج هابيل توأم قاييل، وكانت توأم قاييل أجمل من توأم هابيل، وعندما طلب آدم من أبنائه إتمام ذلك الزواج، أبى قاييل ذلك ورفض بشدة؛ لأن نصيبه هو الفتاة الأقل جمالًا.

أراد قاييل أن يتزوج من توأمه، خلافًا لأمر الله، ولم يرضَ بتلك القسمة، ولحل تلك القضية هدى الله تعالى آدم إلى مخرج، هو أن يقدم كلٌّ من قاييل وهابيل قربانًا إلى الله -عز وجل- والذي يقبل قربانه سينال مراده ومشتهاه وينفذ طلبه؛ أي إذا تقبل الله قربان قاييل، سيتزوج من أخته وليس أخت هابيل.

قدّم هابيل قربانًا من أسمن أغنامه، أما قاييل فقد قدم قممًا من زرعه.. نزلت نار من السماء فأكلت قربان هابيل، وتركت لقاييل قربانه، ما كان إيدانًا بقبول قربان هابيل، ورفض قربان قاييل.

يفسر العهد القديم عدم قبول قربان قاييل بأنه كان مخالفًا لما كان يتطلبه وهو الذبيحة الدموية، أما هابيل فقد فعل وقدّم دمًا يراق لوجه الله.

غضب قابيل من رفض قربانه، ونظر لأخيه متوعدًا إياه بالقتل، وألا يتركه يتزوج من أخته أبدًا.. لم يردّ هابيل عليه واكتفى بتأكيد أن الله لا يتقبل إلا من المتقين، كان هابيل رجلاً موفور الجسم والعقل، وهب الحكمة وأثر رضا الله تعالى وطاعة والديه راضيًا بقسمة ربه.

غلت نار الحسد والغيرة والحقد في قلب قابيل، فقام بقتل أخيه وهو نائم، ويقال إن حادثة القتل هذه قد حدثت في جبل "قاسيون" المطل على مدينة دمشق، وبهذا يكون هابيل أول من قتل على سطح الأرض.

لم يعرف قابيل كيف يواري جثة أخيه، وقرر أن يحمله في جراب على ظهره حائرًا ومضطربًا لا يعلم ما يفعل، إلى أن بعث الله تعالى غرابين يقتتلان، فقتل أحد الغرابين نظيره وحفر حفرةً في التراب بمنقاره ليواري فيها جثة الغراب الآخر ويخفيها، ومن هذا المشهد تعلم قابيل متأثرًا ومستشعرًا بشيء من الحسرة والندم، وحفر حفرةً لأخيه دافئًا جثته تحت التراب.

في العهد القديم، وبعد دفن هابيل يُروى أن الرب سأل قابيل عن مكان هابيل أخيه، فأجاب قابيل أنه لا يعلم، وأنه ليس بحارس لأخيه، فقال له الرب، ماذا فعلت يا قابيل؟ فصوت دم أخيك صاخ من الأرض ومن الآن أنت ملعون من الأرض التي فتحت فاهًا لتقبل دم أخيك من يدك، وكُتب عليك أن تكون تائمًا وهاربًا في الأرض.

أما في القرآن الكريم فقد ندم قابيل على فعلته وتاب إلى الله ومات من أثر الندم والحزن الشديد على المعصية التي ارتكبها بحق أخيه، كما أن قابيل أصبح يتحمّل ذنب كل جريمة قتل عمد تحصل على الأرض من بعده، كونه أول قاتل على وجه الأرض وكان القاتل.. شقيقه!